حظ المريدين من مقام شيخهم

سؤال: أليس للمريدين حظاً من مقام وكرامة شيخهم؟

ـــ

كلهم لهم حظ، ولكن فينا من يتمتع بهذا النصيب وهو في الدنيا، وهذا يكون له تأهيل خاص، وفينا من لا يتمتع بذلك إلا ساعة الفراق وهو خارج من الدنيا: (فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (٢٢ق)، وفينا من يتمتع بذلك في البرزخ. المهم في الآخرة سنكون قد اكتملنا في معرفة الله عزَّ وجلَّ، لأنه لا بد أن نكتمل في هذا المقام.

فينا من يُوفق وهو في الدنيا لكشف الغطاء، فيرى أنوار هذا العطاء، ومنا من لا يُكاشف به في الدنيا رحمة به لأنه لو كُشف له في حياته فلا يتحمَّل، فيجوز أن تحدث له حالة وَلَهٌ، أو حالة جنون، أو يحدث له حالة من الحالات التي لا تتحملها قواه البشرية، والله عزَّ وجلَّ يريد لنا أن نكون من أهل الكمال في الوصال لله عزَّ وجلَّ. فلا أحزن إن لم أصل إلى ما وصلوا إليه، لأني سأصل إن شاء الله عزَّ وجلَّ لأنني واثق أنه يختار لي الأفضل.

كان هناك أحد الذاكرين الحاضرين السالكين مع الإمام أبي العزائم رضِي الله عنه ويجلس مع الأحباب ويسمع منهم، فمنهم من يقول: إني رأيت كذا في المنام، ومن يقول: رأيت الليلة كذا، وهو لا يرى شيئاً، ولا ينتبه أن هذا الذي لا يرى صاحب المقام الأكمل: ((إذا كَمُل يقين العبد حُرم الرؤيا))، أما الذي يرى فهو صغير في المقام، إن لم يرى سيغضب ويحزن وقد يرجع فيبشروه ليقربوه، فإذا كَمُل فلن يعبأ بالرؤيا لأنه وصل للكمال.

فجاء للشيخ وقال له: أنا لا أرى شيئاً وفلان يقول: أنا رأيت كذا، وفلان يقول: أنا رأيت كذا، فانتظر الشيخ حتى أقاموا حلقة الذكر فوضع الشيخ يده على صدره،

فرأى الرجل قلبه يطوف حول العرش، فرفع الشيخ يده فعاد كما كان يرى من حوله، وكلما وضع يده على قلبه يرى قلبه وهو يطوف حول العرش، فإذا رفع الشيخ يده يرى نفسه كما هو، وبعد الذكر قال له: انتهي القلق يا سيدي.

فهذا مقام الحفظ، لأن هذه الأشياء كالرؤيات والمشاهدات قد تكون فتنة للسالك وتُعرِّضه للمهالك، فيقول المريد: أنا أرى رؤيات كذا وكذا فأنا ممنوح وأنا كذا وكذا، فقد يتعالى على إخوانه، وقد يظن أنه خير أهل زمانه، وقد يحدث أنه في يومٍ من الأيام يظن أنه صار في غنىً عن الشيخ، وأنا شيخ ويريد أن يكون له مريدين، وهذا يحدث في كل زمان ومكان، وذلك لأن النفس ما زالت موجودة.

لو ظل في حصن الأمان، وادُّخر له ذلك حتى ميعاد لقاء الرحمن، فما الخديعة التي تأتيه هنا؟ لا شيء لأنه دخل دائرة الأمان الأعظم والمقام الأكرم، وحفظه الله عزَّ وجلَّ من فتن النفس، وفتن النفس في هذا المجال لا حدَّ لها ولا عدَّ لها.

لا يصل أحد في العلم كما وصل الشيطان، فلا يوجد عالم من أول الدنيا إلى آخرها وصل إلى ما وصل إليه إبليس، ومع ذلك وقع في التلبيس وخرج من الجنة، ولذلك فالعلم ليس كل شيء، وبلعام بن باعوراء الذي حكى لنا الله عزَّ وجلَّ قصته: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا) (١٧٥الأعراف)، وكان تربَّى على يد سيدنا موسى، ظل في العبادة حتى وصل إلى مقام الكشف، وكان يطَّلع على اللوح ا فوظ وهو في مكانه، وكان يُستشفى بدعائه في الوقت والحال، وطلابه كانوا سبعين ألف طالب.

موسى عليه السلام عبد، ومقام الكمال مقام العبدية، والصالحين الذين تظهر على أيديهم الكرامات والإشارات فهؤلاء لايزالون صغار، لكن الكُمَّل عبيد ولا يظهر عليهم شيئاً نهائياً، وإذا رآهم النا يرونهم مثلهم: (أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ) (٢٤القمر)،

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) (٧الفرقان).

والنا يريدون من يخالفهم، كرجلٍ يمشي في الطريق ويمسك بسيف، يقولون: هذا رجلٌ من الصالحين، لأن مظهره غير مألوف. لكن رجل يلبس بدلة وأنيق في لبسه، ويركب طائرة، ويركب سيارة فاخرة، فهل هذا من الصالحين؟ يقولون: لا، هو يريد إنسان عاري أو حافي .. المناظر الغير مألوفة، وهؤلاء رجالهم صغار في طريق الله عزَّ وجلَّ، ولا ينفع إلا نفسه، ولا يجوز الإقتداء به، ولا حتى طلب الإنتفاع بدعائه، لأنك ربما تطلب منه الدعاء فيدعو لك بدعوة – ودعاؤه مستجاب – وأنت لا تريدها لأن له حال أنت لست مثله.

فبلعام بن باعوراء عندما رأى نفسه كذلك قال: لماذا يحمل موسى النبوة والرسالة؟! يجب أن يكون لي القُطبانية في الأرض، ومعي كل شيء، فماذا يفعل؟ دعا على سيدنا موسى ليُوسّع الله له الطريق ليكون الوحيد الفريد، وهذا من مكر النفس، فغضب الله عزَّ وجلَّ وقال: أتدعو على موسى كليمي وصفيي، فسُلب كل ما معه: (فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) (الأعراف) أصبح الشيطان تابعاً له وليس هو الذي يتبع الشيطان: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث) (١٧٦الأعراف).

وهذا النموذج يحدث كثيراً، ونراه كثيراً في رحاب الصالحين، لماذا؟ العبد عندما يُعجَّل له بالفتح، ولم يتمكن في تزكية النفس فمن الممكن أن يُمكَّر به، ونفسه تلعب به، فيشتط ويبعد عن طريق الله، وعلى الأقل يقع في الوحل فلا يرى لنفسه أنه أهل للسماع أو للتزكية لأنه وصل واتصل، وهي آفة كثيرٍ من الأحباب، كثيرٌ منهم يضع نفسه شيخاً، وشيخ يعني له مريدين، فلا يسمع من شيخه ولا من غيره، وإذا جاء للجلو يأخذ معه ثلاثة أو أربعة مريدين ليكون هو شيخهم.

فالشيخ سُمي شيخٌ لأنه شاخ في معرفة الحقائق ليوضحها لنا، لكن لا يزال شاباً في الحقائق ولا يعرفها فكيف يوضحها لنا؟! يوضحها إذا أخذ الخبرة، وأخذ الأمر الصريح من يد خير البرية صلى الله عليه وسلَّم: (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (٢٣القصص)، يعني مستشار كبير في عالم الحقائق وهذه الرقائق، وليس شيخاً كبيراً في السن، لأن المؤمن لا يشيب، أهل الإيمان يظل إلى أن يلقى الله عزَّ وجلَّ شاباً، لأنه يأخذ صفة أهل الجنة؛ لا يبلى شبابهم، فيبقى قلبه إلى أن يلقى الله عزَّ وجلَّ شاباً.

فالأفضل لي والأحسن لي: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) (٦٥النساء)، ما الذي ضيعني؟ لو رجعت لي عجلتي مرةً أُخرى: (وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً) (١١الإسراء) متعجِّل ويقول: لي مع الشيخ سنين ولم أصل إلى شيء، وهذا من النفس تتعجَّل الظهور، وتتعجَّل المشيخة، وتتعجَّل أن يكون لك كيان في المجتمع، وهذا غير مراد الله، وأنت تريد مرادك. لكن المريد الصادق يطلب مراد الله فيه لا مراده، ماذا تريد حتى إذا أوقفك الله بين يديه؟ أريد أن لا أريد:

وكن عبداً لنا والعبد يرضى بما تقضي الموالي من مرادٍ

هل يوجد عبد يكون له طلبات أو يرى لنفسه حقوقاً مع سيِّده؟ لا، وسيِّده لو حاسبه لن يقدر على هذا الحساب، هل يستطيع أحدٌ أن يُحاسَب على نَفَسٍ واحد من النعم الإلهية الظاهرة والباطنة؟!.

الإمام الجنيد رضِي الله عنه وأرضاه والذي يُضرب به المثل، كان يصلي في الليلة ثلاثمائة ركعة، وكان يصوم ولا يفطر إلا كل أربعين يومٍ مرة على تمرة، وبعد انتقاله إلى جوار الله رآه أحد أصدقائه في المنام وقال له: ما فعل الله بك؟ قال: ((حاسبونا فدقَّقوا ثم مَنُّوا فاعتقوا!!))، فلن يصلح أحد بالحساب ولكن بفضل الله عزَّ وجلَّ، قال صلى

الله عليه وسلَّم: (لَا يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَفَضْلٍ)[1].

فكونك تريد أن يكون لك مقاماً، ويكون لك شهوداً، ولك كذا، فأنت ترى نفسك أنك قدمتَ شيئاً، وهل عملت شيئاً بدون حول الله وطول وتوفيق الله؟! وأنت كونك تطلب شيئاً فإنك لا ترى فضل الله عليك، ولا إنعام الله عليك، وأنت في نفس الوقت لا تعرف ما الأفضل وما الأحسن لك عند الله عزَّ وجلَّ، فالأفضل لك والأحسن لك هو المقام الأكمل وهو مقام الحضرة ا حمدية، ومَن على قدمه من أهل الوراثة ا حمدية، وهو مقام العبدية: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) (١الكهف)، ومن هذا العبد؟ ظاهره خلق، وباطنه حق، لا يرى الخلق من باطنه قليلاً ولا كثيراً، مثله مثلهم، وهذا الإعجاز.

ولذلك النا دائماً تميل للمجاذيب ويريدون أن يشاهدوهم، لكن أهل مقام العبودية لا يرى ما بهم إلا أهل الخصوصية بكشف العطاء من ربِّ البرية عزَّ وجلَّ، فيكشف لهم عن خصوصية هؤلاء القوم لأنه مثلهم مثل النا ، لذلك الأفضل لك والأحسن لك التسليم، ولذلك قالوا: ((من فاز بالتسليم فاز بكمال النعيم)).

نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا من المُسلمِّين لحضرته، والمُسلمِّين لحبيبه ومصطفاه، والمُسلمِّين للصالحين من عباد الله، وأن يجعل أحوالنا وأفعالنا وأقوالنا وأعمالنا وأموالنا وأبناءنا وزوجاتنا كلها في رضاه، وأن يجعلنا في كل أنفاسنا لا نتوجه إلا إلى الله، ولا نطلب منه عزَّ وجلَّ إلا رضاه، ولا نبغي في الدارين شيئاً سواه، وأن يكُفَّ أبصارنا وأسماعنا عن النظر إلى عداه، وأن يكلأنا بعنايته، ويرعانا برعايته، ويغنينا بفضله وجوده وكرمه ظاهراً وباطناً عما سواه.

[1] مسند أحمد عن أبي هريرة رضِي الله عنه

وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم